الصوت واللغة

أ.د.مصطفى حركات

جامعة الجزائر 2

mostefaharkat@yahoo.fr

ملخّص

نتعرض في هذا المقال إلى مفهوم الكلام باعتباره موجة صوتية اهتزازية مستمرة عبر الزمن ونعرض إلى اللغة باعتبارها نظاما للتواصل بين البشر قابلا للتقطيع والتركيب، ناظرين في ذلك إلى ما دونه القدماء وما يقدمه المخبر اليوم. ثم نعرج إلى لسانيات المكتوب ولسانيات المنطوق ومسألة العروض والى علاقة الحرف بالحركة لنخلص إلى مشكلة خلو النص العربي من الحركات و أثر ذلك على تعلم الصغار والصعوبات التي يواجهها الحاسوب إزاءها بالرغم من أن الكتابة العربية قريبة جدا من الكتابة الصوتية. ثم نختم المقال بالتطرق إلى العامية و نظامها الصوتي و كذا ذكر بعض المحاور الجديرة بالاهتمام و البحث.

1.مقدمة

المخلوقات في هذه الأرض تعيش جماعات ويقودها هذا الوضع إلى البحث عن سبل للتواصل لأن هذا التواصل مصيري بالنسبة لحياتها كأفراد وأجناس. ويكتسي هذا التواصل أشكالا مختلفة مرتبطة بالحواس الخمس، بعضها إشارات، وبعضها حركات منظمة كالرقص عند النحل، وبعضها رائحة أو ضوء. ولكن أهم الرموز الدالة متعلق بالصوت.

والتواصل بالأصوات يُنظمه كل جنس بطرائقه الخاصة فقد يكون بسيطا ترتبط كل وحدة منه بمعنى مفرد وقد يكون ثري التنظيم مثلما يحدث عند الدلافين. والإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بنظامه التواصلي المتطور. هذا النظام الذي نسميه لغة والذي هو أساس كل الحضارات.

2.الصوت والتواصل

كل التعاريف التي أرادت تحديد اللغة أكدت على التواصل بواسطة الأصوات ومن بين هذه التعاريف تعريف ابن جني الشهير: اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم.

وأضاف أندري مارتيني إلى هذا التعريف أمورا تخص بنية النظام التواصلي، وهي في رأيه بنية ثنائية أحد مستوياتها مكون من وحدات غير دالة في مفردها، ومستواها الآخر يتسم باقتران الصوت

بالمعنى. هذا البناء الثنائي أو التمفصل المزدوج هو عند مارتيني الشرط اللازم والكافي كي يكون أي نظام تواصلي لغة.

إذا كان الاتفاق بديهيا وعامًّا على ربط اللغة بالصوت فنحن نجهل الكثير عن هذا الصوت وذلك رغم التطور التكنولوجي الكبير في ميدان الصوتيات النطقية والفيزيائية.

خلال مناقشة لأعمال طالبة تطرقتْ فيها لبعض الجوانب الفيزيائية لأصوات العربية طرحت عليها السؤال الآتي: ما هو الصوت؟ جهلها لم يفاجئني وذلك لأن الكثير ممن يمارسون الصوتيات لا يهتمون بتحديد هذا الشيء الغامض الذي هو الصوت. فنحن نراهم يطلقون مرة كلمة فونيم على التأديات ومرة يستعملون عبارة صوت حيث يلزم استعمال مصطلح الفونيم وكل هذا مبهم عند جل الباحثين العرب. في معجم اللسانيات الذي أشرف عليه Jean Dubois نجد هذا التعريف للصوت: {الصوت هو موجة تتنقل في الهواء أو في جسم آخر نتيجة اهتزاز قد يكون دوريا أو غير دوري، بسيط أو مركب}

هذا تعريف عام يشمل كل ما تحدثه الأشياء عند احتكاك بعضها بالبعض فللماء عند انسيابه خرير، وعند غليانه أزيز، والريح لها حفيف عند التقائها بالأشجار ، وللرعد دوي وللجبال صدى، والأيدي تدق على الأبواب ، والأرجل تطرق الأرض .

وللحيوانات أيضا أصوات فالعصافير تزقزق والقطط تموء، والكلاب تنبح، والخيل تصهل وتحمحم، والحمير تنهق وتسحل، والذئاب تعوي وتلعلع...

كل هذا مفصل في المعاجم الموضوعية كفقه اللغة للثعالبي وجواهر الألفاظ لقدامة بن جعفر. والعربية ثرية في ميدان وصف الأصوات غير أن الذي يهم اللغوي هو الصوت البشري.

ولكن هل كل صوت يحدثه الإنسان لغوي؟ هل الشخير والنخير والغطيط والزفير والتنهد من اهتمامات عالم الأصوات؟

ننتهي إلى أن الصوت يدخل في إطار التواصل، ولكن هناك أصوات كالصفير والقهقهة والتمطق غرضها التواصل ولكنها لا تدخل في اهتمامات اللغوي.

ونصل إلى البنية فالأصوات اللغوية هي التي بتركيبها تنتج الوحدات الدالة.يبقى أن هناك تساؤلا حول طبيعة الصوت. وذلك أننا نتكلم عنه بالإفراد والجمع وربما بالمثنى، أي أننا نجزئ الأصوات. والكل يعرف أن الكلام متصل. فكيف نقطع ما هو متصل؟

التقطيع إلى وحدات قابلة للعد la discrétisation قامت به الكتابات الأبجدية وهي تكوّن في حدِّ ذاتها نظرية للغة. والكتابة العربية هي من بين الكتابات الأبجدية الكبرى التي دونت بطريقتها الخاصة اللغة المتداولة آنذاك.

ولكن التقطيع يوحي بأن الأصوات وحدات منفصلة وهذا ليس بالصحيح فكل ما هو وارد في ميدان الصوت البشري غير قابل للعد، فإن كان بالإمكان فصل الفونيمات عن بعضها فإن بعض الوحدات

التي تلعب دورا هامًا في التبليغ غير قابلة للتجزيئ فهي مستمرة بطبيعتها ومن بين هذه الوحدات ما هو فوق المقطع كما يقال ، مثل النبر والطول والنغمة (le ton) ومنها ما يخص الجملة كاللهجة التي تحمل دلالات التعجب أو التأثر أو التساؤل.

القول بأن الأصوات أمواج تنتقل عبر الهواء أو عبر غاز من الغازات أو سائل يوهمنا بأننا ندرس هذه التموجات نفسها أي ماديتها. والكثير من الدارسين يعتقدون أن الصوت هو مثلا هذا المخطط أو ما يشابهه، ظانّين، بنوع من السذاجة، أن المنحني يمثل مسار ذرات الهواء بعد حدوث الصوت. وعندما نجعلهم يلاحظون أن المنحنى مرسوم في مستو والصوت ينتشر عبر الفضاء كله يمينا وشمالا ومن الأعلى والأسفل، يخامرهم الشك ويتساءلون عن إمكانية إسقاط هذه التموجات على المستوي ولكن البحث عن دلالات المحورين يظهر لهم حقيقة الأمور . فمحور السينات ما هو إلا الزمن والمحور العمودي يمثل السعة. وحركة النواس هي التي توحي بهذا المخطط .

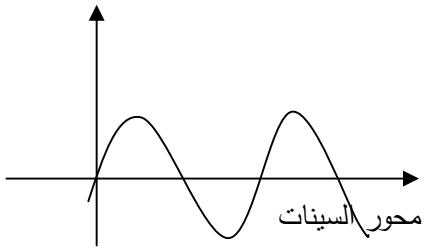

وفي الحقيقة نحن لا ندرس مادية الصوت وإنما أثر الصوت على أجهزتنا فكل آلاتنا المتطورة تقيس خواص الأصوات من خلال أثرها عليها.

3.الآلة والإنسان

التكنولوجيا الصوتية تطرح علينا السؤال الآتي: هل الآلات كفيلة بوصف الأصوات من خلال وظائفها في اللغة؟

الجواب على هذا السؤال مرتبط بعلاقة الإنسان بالآلات وكما أن الحاسوب لا يستطيع أن يفعل شيئا دون المبرمج فالآلات لا تستطيع أن تتعامل إلا مع المعطيات التي تتلقاها.

أتذكر في هذا الصدد ما قاله بعض اللغويين وهو يعيب على الخليل تمييزه بين التفعيلتين مستفعلن و مستفع لن حيث الأولى تقطع كما يلي: 011/01/01 أي إلى سببين خفيفين ووتد مجموع والثانية كما يلي: 01/101/01 أي إلى وتد مفروق يتوسط سببين.

قال باحثنا: إنني حللت في المخبر بواسطة الآلات الحديثة كلا من التفعيلتين ولم أجد أي فرق بينهما.

محمد الدمنهوري الذي سبقه بقرن قال كلاما أكثر عقلانية: التفعيلتان متفقتان في النطق ومختلفتان في التركيب.

وأنا أقول : الآن إنهما مختلفتان في النطق والتركيب.

الخطأ الذي وقع فيه اللغوي هو الاعتقاد بأن الميدان الصوتي مقتصر على تسلسل الحروف والحركات ونسي أن الميدان النغمي (prosodie) يلعب دورا هاما في اللغة وخصوصا في ميداني الإيقاع والوزن.

وخلاصة القول حول هذه النقطة هي أن مستفعلن تنطق في الرجز مثلا بالتركيز على نهاية التفعيلة و مستفع لن التي يتوسطها الوتد المفروق تنطق بالتركيز على الفاء.

وإن لزم اللجوء إلى المخبر لإظهار هذا التباين فإن التجربة تتطلب أمرين:

1. اختيار من يحسن إلقاء الشعر بطريقة موقعة.
2. عدم الاقتصار على المقاييس النظرية وإنما اللجوء إلى الواقع اللغوي أي إلى العديد من الأبيات مع حروف وحركات مختلفة حتى نأخذ المتوسط من القياسات.

تجربة كهذه تجعلنا نتساءل عن علاقتنا كلغويين أمام تكنولوجية الصوتيات. هل نحن قادرون على الإتيان بما يفيد اللغة من خلال تعاملنا مع الآلات أم أننا أمامها كالشخص البدائي الذي يبهره كل جديد؟

4.تكنولوجية الصوتيات والدراسات التقليدية

تكنولوجية الصوتيات تثير تساؤلات حول جدواها وأهميتها وعلاقتها بالبحث الصوتي القديم.

الذي نلاحظه هو أن المخبر لم يأت بجديد يذكر. فوصف سيبويه ما زال هو السائد. وكل الآلات المتطورة لم تحدث أي ثورة في الوصف اللغوي التقليدي. هذا لأن الصوتيات هي صوتيات لغوية قبل كل شيء والممارسة التي تستطيع أن تفيد هي ممارسات مرتبطة بالمعنى، والمعنى يغيب عن الآلة. هذا شيء يعرفه كل الإعلاميين الحقيقيين الذين فهموا منذ أمد طويل أن الذكاء الاصطناعي سراب وأن الترجمة الآلية أضغاث أحلام لا يتحقق منها إلا النزر القليل.

أتكلم هنا عن اللغة ونظامها وبنيتها ولا أتكلم عن ميادين تكون فيها تكنولوجية الأصوات مفيدة كتحليل الكلام والانتقال من المكتوب إلى المنطوق ومن المنطوق إلى المكتوب وإلى غير ذلك من المجالات التي تلعب فيها الصوتيات الفيزيائية والحاسوبية أدوارا مفيدة.

في ما يخص البحث الصوتي التكنولوجي في العالم العربي فالذي نلاحظه أمران:

1. الأعمال والبحوث التي قام بها المختصون آتية من أشخاص لا يعرفون إلا النزر القليل عن المجال اللغوي، وتكوين هؤلاء تكوين علمي بحت فجلهم جاء من ميادين الفيزياء أو الإلكترونيك أو الإعلام الآلي،
2. علماء اللغة لم يمارسوا العمل في المخابر إلا بصفة سطحية.

من العلماء الغربيين الذين تخصصوا في الميدانين نجد برتيل مالمبرق (Bertil Malemberg)، وملمحه نادر لأنه متمكن في جل ميادين اللغة. وهذا الملمح لا نجد له مقابلا الآن في العالم العربي.

5.لسانيات المنطوق ولسانيات المكتوب

الصوتيات اللغوية هي الفونولوجيا أو الصوتيات الوظيفية ومهمتها تحديد الدور الذي تلعبه الأصوات في اللغة وذلك من ناحية التبليغ. وتتقابل هذه الصوتيات مع الصوتيات البحتة أو المادية التي تدرس المادة الصوتية بمعزل عن عملية التبليغ.

هناك حاجز بين الفونيتيك، سواء كانت نطقية أو فيزيائية، وبين الفونولوجيا. حاجز أراده تروبستكوي (Troubetskoy) وبعض اللسانيين منيعا. ولكن اليوم جسور متعددة ألقيت بين الميدانين فالصوتيون التقنيون على دراية بالفونولوجيا وعلوم اللغة، وأصحاب الفونولوجيا لا يجهلون ما يدور في المخابر.

ومن جهة أخرى فالفونولوجيا وعلوم اللسان عموما في عراك مع المكتوب لفرض المنطوق.انظر إلى علامة الجمع في الفرنسية: (les livres)، هذه العلامة تحملها خطيا كلمتان أداة التعريف والاسم، ولكنها صوتيا مقتصرة على أداة التعريف. ويظهر هذا جليا في التقابل بين: le livre, les livres عندما نكتب هذه الثنائية بواسطة الأبجدية الصوتية.

غير أن معظم الفرنسيين يرون أن الجمع علامته في الكلمتين. طغيان الإملاء على الدرس اللغوي جعل بعضهم يميز بين لسانيات المكتوب ولسانيات المنطوق.

وعندنا ، لما يقول النحويون بأن الرفع يكون بأربع علامات هي الضمة والواو والألف والنون، فإن بعضا من هذا مرتبط بالمكتوب في : جاء معلمُ القسم، جاء معلمُوا القسم

الرفع يكون بالضمة قصيرة أو ممدودة وليس بالواو، لأن الواو ما هي إلا علامة المد، وإنما التقابل بين القصير والطويل من الحركتين هو تقابل بين المفرد والجمع.

في القافية حيث الصوتيات تلعب دورًا هامًّا جل المفاهيم مبنية على المكتوب. ففي الكلمات التي تنهي معلقة الأعشى: مرتحلو، الرجلو، الوجلو، عجلو، زجلو ...

نلاحظ تكرار بعض الأصوات، يسمي العروضيون اللام رويًا ويسمون الواو وصلاً وفي الحقيقة فإن ما يتبع الروي هو الضمة الممدودة.

هذا النوع من التجاوز لا يمنع من ممارسة الإعراب أو القافية والمكتوب في الحقيقة يؤدي دورًا تعليميا إيجابيا . ولكن عالم الأصوات اليوم لا يستطيع أن يتقبل هذا الخطأ المنهجي ولا يرضى بصدارة المكتوب على المنطوق.

6.أثر الكتابة على البحث الصوتي

الكتابة العربية كنظام لتدوين اللغة تملك إيجابيات كثيرة. إيجابيتها تتلخص في كونها فونولوجية أي أنها تدون الفونيم وليس التأدية الصوتية، وهي قريبة من الكتابة الصوتية بحيث أن التقابل بين الوحدة الخطية والوحدة الصوتية تكاد تكون تقابلا أحاديا، وينعكس هذا على إملائها الذي هو بسيط ومنطقي.
ولكن الوجه السلبي في هذه الكتابة هو فصل الحركات عن الحروف مما جعل الكثير من المتعلمين والباحثين غير متقيدين بخطية الكلام أي بتعاقبه عبر زمن التلفظ حتى قاد هذا لغويا عبقريا مثل ابن جني إلى التساؤل حول رتبة الحرف والحركة. هل الحرف يتبع الحركة أم الحركة هي التي تتبع الحرف؟
معظم الناطقين بلغة الضاد يرون أن الحركات تحملها الحروف ولا يدركون إلا بمشقة أن الحركة تأتي بعد الحرف وأنها فونيمًا مثل باقي الوحدات.
ومن جهة أخرى فإن حروف المد أخذت مواقع في خط الكلام وأصبحت في اعتقاد الكثير حروفًا كغيرها ذات مخارج وصفات شبيهة بالصوامت، وهذا الموقف جعل ابن جني يتساءل عن علاقة الحركات بالحروف ويقول إن الحركات أبعاض الحروف.
وإذا كانت ثغرة في الدرس الصوتي التقليدي فإن هذه الثغرة آتية من تهميش الحركات. فالصوائت les voyelles لها نظامها الخاص وصفاتها التقابلية تختلف عن صفات الصوامت. وعلى عالم الأصوات العربي اليوم أن يسد هذه الثغرات كي يكتمل بناء النظام الصوتي بصفة سليمة.
عليه أيضا أن يدرس ما جاء به الأقدمون في ضوء ما هو حديث بموضوعية وبعيدا عن كل موقف عاطفي رافضًا أحيانًا جملة التراث، ومؤيدا دون أي نقد أحيانا كل اختيارات القدماء.
وإذا كان الإرث الصوتي القديم يحمل في طياته ثغرات فإن ما أتانا به بعض المستشرقين شيء كارثي. وأقصد بهذا قضية النبر الذي أرادوا فرضه على لغتنا وقادوا بعض النقاد نحو اتجاهات الغموض والسفسطة.

7.الكتابة وضوابطها

الكتابة العربية تطرح علينا مشكلا حقيقيا وهو علاقتها بالنطق عند خلوها من الضوابط التي ترافق الحروف، هذه العلاقة تتجلى في شيئين:

1. الميدان التربوي حيث قراءة النصوص المعراة من الضوابط تكوّن عائقًا في وجه الفهم والتعلم، وذلك بالنسبة للأطفال الصغار وبالنسبة للأجانب الذين لا يملكون الملكة الكافية لتشفير هذه النصوص.
2. الميدان الإعلامي حيث نحن في حاجة إلى إعطاء النصوص المعراة صورة صوتية كي ينتقل الحاسوب من المكتوب إلى المقروء دون خطإ.

ويكِّون البحث في ميادين التشكيل الآلي تحد للغويين العرب، تحد كبير شبيه بالذي طرح في ميادين الترجمة الآلية والتصحيح الإملائي والذكاء الاصطناعي [1].

8.الكتابة الصوتية

الكتابة الصوتية، التي هي لازمة الاستعمال في كثير من الأحيان، نرى باحثينا يتجنبوها وإن استعملوها فهم يلجؤون إلى الحروف العربية متداركين غياب حركاتها من خط الكلام باستعمال الرموز ـَ ، ـِ ، ـُ ، ـا ، ـِي ، ـُو للدلالة على الصوائت.

ولكن الطلبة –حسب تجربتنا– يفضلون الرموز العالمية إلاّ أن بعض الحروف الغائبة من مفاتيح الحاسوب العادية تطرح عليهم مشكلا. ولذا فإننا نراهم يستعملون في كتابة الرسائل القصيرة في الهواتف النقالة بعض الأرقام للدلالة على حاجياتهم. وفي هذا حذق على اللغوي أن يقلده.

وليس من الصعب إيجاد بعض الحروف في المفاتيح العادية للدلالة على الحروف الخاصة بالعربية فالقاف يدل عليها بالحرف q ، والخاء يليق لها الحرف x ، والثاء والذال يشار إليها بواسطة الحروف اليونانية. وعلى اللغويين العرب أن يبحثوا في هذه القضية.

أضف إلى هذا أن فائدة الكتابة الصوتية لا تكمن في الدرس الصوتي وحده وإنما أهميتها ربما أكثر عند الانتقال إلى المستويين الصرفي والتركيبي.

9.العامية ونظامها الصوتي

للباحثين في الصوتيات ميدان خصب هو ميدان العامية. من الخطإ الشائع أن نظن أن النظام الصوتي في العامية مخالف للنظام الصوتي الفصيح. فبناء هذا النظام سهل. سنجد فيه أن الباء العامية هي الباء الفصيحة التي تتقابل من ناحية الغنة مع الميم ولا تتقابل مع المهموس [p] ...والتاء هي التاء التي تتقابل مع الطاء في التفخيم والترقيق، ومع الدال في الجهر والهمس، ومع الثاء في الشدة والرخاوة، ومع النون في الغنة والفموية. وبإجراء كل التقابلات بين الأصوات سنصل إلى نظام فونولوجي يطابق الفصيح دون أي تغيير في الوحدات يذكر. وإن كانت هناك فروق فهي فروق في التأدية ولكنها ليست فروقا على مستوى الفونيمات أو على مستوى النغم.

وإنما الذي تغير في الميدان الصوتي هو ما حدث على مستوى المقاطع اللغوية أي على مستوى تعاقب الحروف والحركات. فالعامية أصبحت بطريقة شبه قاعدية تنفي تعاقب المتحركين المتتاليين أو ورود المقاطع القصيرة وذلك ما هو بارز في النطق بكلمة مثل: كِتاب التي أصبحت كْتاب بإسكان الكاف (kitab – ktab) حيث أقصيت حركة الكاف لتعاقب المتحركين. وقد درست هذا في كتابي {الهادي إلى أوزان الشعر الشعبي} وأظهرت كيف أن إيقاع العامية أدى إلى تغيير إيقاع الشعر.

(1) انظر: حركات، مصطفى، الكتابة والقراءة وقضايا الخط العربي، دار الأفاق، الجزائر.

وإذا كانت الأبحاث الزمانية diachronique غائبة في أبحاثنا فإن البحث في علاقة العامية بالفصحى يكون محورا شيقا تجاهله مع الأسف الدارسون.

وبخصوص العامية أيضا فإن قضية تدوينها تكوّن مسألة تتطلب حلولا. فالذي نشاهده في الكتب وفي لافتات الشارع تدوين عشوائي مغرض أحيانًا وذلك أنه نابع من نية في فصل العامية عن الفصحى. وهذا الفصل مفتعل فاليوم مئات الجسور تربط بين الفصحى وعامياتها. ووسائل التواصل الحديثة تجعل اللهجات العربية متجهة نحو التوحيد.

10.خاتمة

إن محاور البحث المستقبلي في ميدان الصوتيات العربية لا تعد ولا تحصى وأذكر منها:

1. الاهتمام بالصوتيات التحويلية إذ أن القدماء كان لهم توجه يشبه توجه التحويليين.
2. الاهتمام بنظام جاكبسون التقابلي.
3. الاهتمام بالإحصاء وتجاور الحروف.
4. إنشاء تيبولوجيا للثنائيات التمييزية لإظهار إنتاجياتها وشرح العديد من الظواهر.

هذه بعض من محاور شيقة يكون البحث فيها مثمرا وخادما للغة.